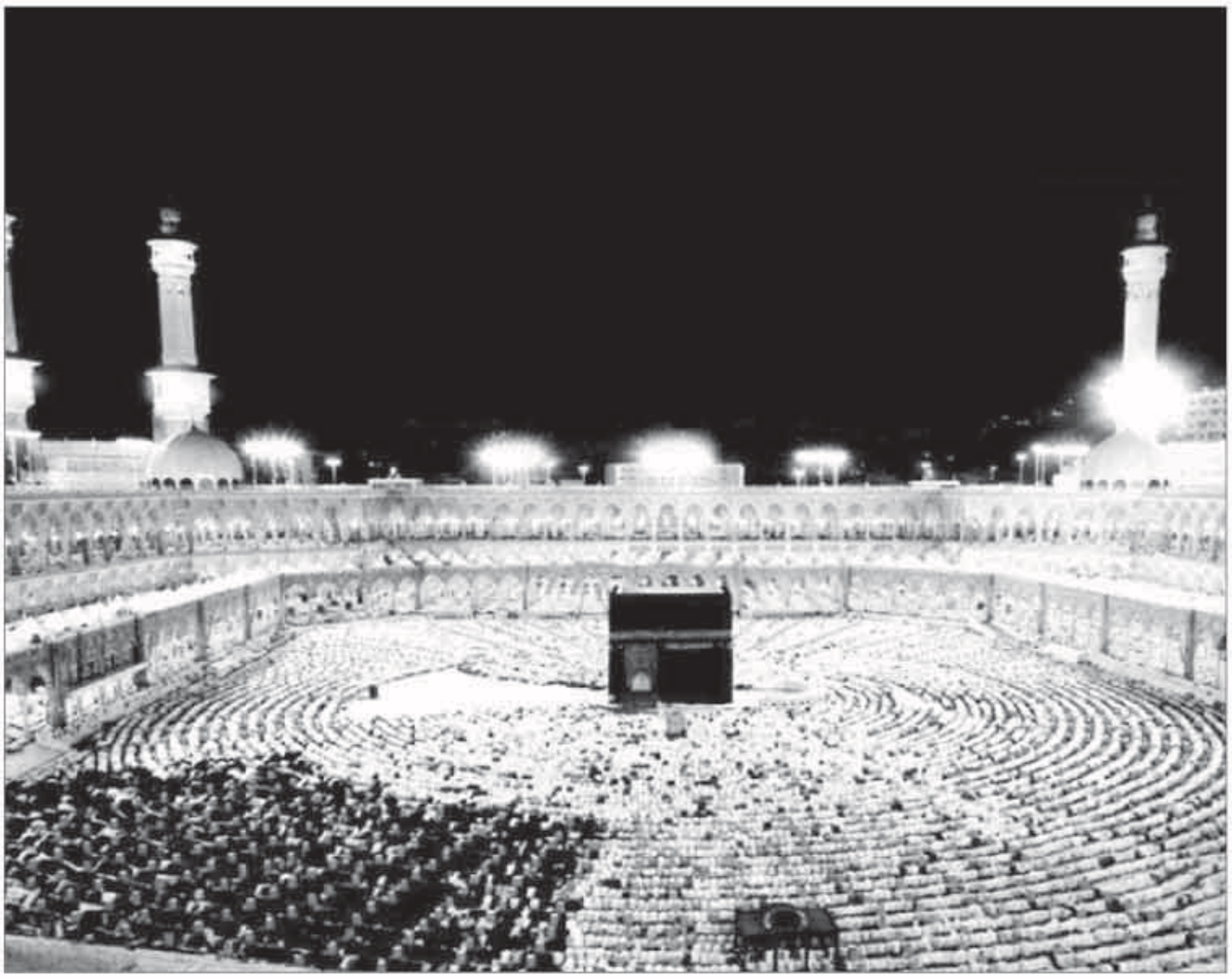

أثر الصيام في اكتساب العزّة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن العزّة خصلة شريفة، وخُلة حميدة، وخُلق رفيع، وأدبٌ سام، تعشقها قلوبُ الكرام، وتهفو إلى اكتسابها النفوسُ الكبار.

وإن الإسلام لدينُ العزّة والكرامة، ودينُ السموّ والارتفاع، ودينُ الجدّ والاجتهاد، فليس دينَ ذلة ومَسكنة، ولا دين كسل وخمول ودعة.

وإن شهر رمضان لميدانٌ فسيحٌ لاكتساب العزّة، والتحلي بها، وذلك من وجوه عديدة متنوعة؛ فالصائمُ - على سبيل المثال - ينال هذا الخُلق من جراء صيامه، وتركه لطعامه، وشرابه، وشهواته المباحة فضلاً عن المحرمة.

وهذا يبعثه إلى الترفع عن الدنايا، ومحقرات الأمور، ويطلقه من أسر العادات، وأهواء النفوس.

وينال العزّة كذلك من جراء بعده عن الجدال والمراء والجهل والرفث، والصخب، والإساءة إلى الناس، امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب».

وفي رواية «ولا يجهل»، وفي رواية «ولا يجادل».

وإذا كان الصائم كذلك حفظ على نفسه عزّتها وكرامتها، ورفعها عن مجاراة الطائفة التي تلذ المهاترة والإقذاع.

وينال المؤمن الصائم العزّة في هذا الشهر من جراء صيامه، وكثرة أعماله الصالحة، وانقطاعه عما سوى الله، وهذا هو سر العزّة الأعظم؛ إذ ينال بسبب ذلك عزة نفس، وزيادة إيمان، واتصالاً وقرباً من الرحمن «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» «المنافقون: من الآية8».

وينال المؤمنون العزّة في هذا الشهر بسبب كثرة إنفاقهم، وإحسانهم إلى الفقراء والمعوزين.

وفي ذلك صيانة للوجوه من السؤال، وإنقاذ لكثير من الناس من عوز الفقر، وذلة الحاجة اللذين قد ينجرفان بهم إلى فساد الأخلاق، وضيعة الآداب.

وهكذا يتبين لنا أثرُ الصيام في اكتساب العزّة، سواء للأفراد أو للأمة.

وما أحوجنا، وما أحوج أمتنا إلى هذا الخلق العظيم، الذي أرشدنا إليه ديننا، وحثنا على التحلي به، ووجهنا إلى اكتسابه، وبيّن لنا جميع السبل الموصلة إليه.

ومن مظاهر تربية الإسلام للمسلمين على هذا الخلق، أن وجّههم إلى إفراد الله بالمسألة دقت أو جلت، كثرت أو قلت.

ومن ذلك توجيه المسلمين إلى الكسب المباح، عن طريق الكدح والعمل، والمشي في مناكب الأرض، حتى يعف الإنسان نفسه، ويستغني عن غيره.

كما وجههم في المقابل إلى أن يترفعوا عن مسألة الناس، ونفرجم من ذلك الخلق الذميم إلا بمن كان مضطراً أو متحملاً حمالة، أو من أصابته جائحة، أو فاقة، أو نحوَ ذلك.

كما أرشدهم إلى أن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى؛ فمنع القادرَ على الكسب من بسط كفه؛ للاستجداء إنْ كان في استجدائه إراقة لماء وجهه.

ثم إن الشريعة أرشدت المسلمَ إذا أخذ المال أن يأخذه بسخاوة نفس؛ ليبارك اللهُ له فيه، وإلا يأخذه بإسراف، وطمع، وتعرض، وذلة، وإشراف.

وإذا اتصف المرء بعزة النفس وفُرت كرامتُه، وارتفع رأسُه، وسلم من ألم الهوان، وتحرر من رق الأهواء وذل الطمع، ولم يسرّ إلا على وفق مايمليه عليه إيمانه، والحق الذي يحمله.

ولهذا تجدُ أن أشدَّ الناس عزماً ومضاءً هو أنزهُهم نفساً، وأبعدهم عن الطمع وجهةً.

ثم إن عزة النفس تلقي على صاحبها وقاراً، وجلالاً، ومكانةً في القلوب، وذلك مما تنشرح له صدورُ العظام.

وإنما يعاب الرجل إذا جعل هذه المكانة غايته المنشودة، دون أن يكون الحامل عليها رضا الله، ومن ثَمَّ نفعُ الآخرين.

وكما أن للعزّة أثراً في الأفراد فكذلك لها آثارٌ صالحة في الأمة؛ فالأمة التي تَشرَب في نفوسها العزة يشتد حرصها على أن تكون مستقلة بشؤونها، غنيّة عن أمم غيرها، وشبابُ في الحذر من الوقوع في يد من يطعن في كرامتها، أو يهتضم حقاً من حقوقها.

معاشر الصائمين هذا شيء من معالم العزّة، وأثر الصيام في اكتسابها.

وإليكم نبذة من النصوص الشرعية الواردة في شأن العزة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» رواه أحمد والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لأن يأخذ أحدكم أحبُلاً، فيأخذ حُزمة من حطب، فيكف الله به وجهَه خيرٌ من أن يسأل الناس أعطي أو منع» رواه البخاري ومسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من يستعفف يعفه الله، ومن يستغنِ يغنه الله، ومن يتصبر يصبرْهُ الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً أو خيراً أوسع من الصبر» رواه البخاري ومسلم.

وفيهما أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة، وليس في وجهه مُزعة لحم».

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من سأل الناس تكثرا فإنما يسأل جمرا؛ فليستقل أو ليستكثر».

بل لقد أوصى - عليه الصلاة والسلام - نفراً من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئا؛ ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنه لما بايع النبي صلى الله عليه وسلم مع طائفة من أصحابه قالوا: فعلام نبايعك؟

قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا...» وأسر كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئا».

قال عوف: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطُ أحدهم؛ فما يسأل أحدا يناوله إياه.

معاشر الصائمين وكما تظافرت نصوصُ الشرع في الثناء على خلق العزّة، والحث عليه، فكذلك تتابعت وصايا العلماء والحكماء.

قال وهب بن منبه رحمه الله لرجل يأتي الملوك: «ويحك تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه بالليل والنهار ويظهر لك غناه، ويقول: «ادعني استجب لك»!.

وقال طاووسٌ - لعطاء - رحمهما الله: «إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونها حُجّابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تدعوه، ووعدك بأن يجيبك».

وأنشد الإمام أحمد بن يحيى ثعلب رحمه الله:

من عفّ خفّ على الصديق
لقاؤه ونحا الحوائج وجهه مبذول
وأخوك من وفّرت ما في كيسه
فإذا استعنت به فأنت ثقيل

معاشر الصائمين: هذه هي العزّة، وها نحن في شهر الخير والعزّة، أفلا نستشعر هذا المعنى من جراء صيامنا؟ وندرك أن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ فنلتمس العزة من مظانها، ونسعى لإدراكها، والاتصاف بها؛ فيكون لنا عزٌ وسرورٌ وذكرٌ جميل في العاجل، وأجرٌ وذخرٌ وعطاءٌ غيرُ مجذوذ في الآجل؟

اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الإنسان مخلوق ليعيش في عالمين .. المادة والروح

شرع الإسلام العبادات الشعائرية وسائل للإنسان لينتصر بها على شهواته

إذ تكثر حوافزه، وتقل أسباب الشر ودواعيه، وتطرد ملائكة الخير شياطين الشر، وقد عبر عن ذلك الحديث الشريف: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب جهنم، وصفدت الشياطين، وفي رواية: «ونادى مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

هذا الاحتفاء السماوي الكبير بمقدم رمضان: تفتيح أبواب الجنان، وتغليق أبواب النيران، وتصفيد كل شيطان، دليل على أن لهذا الشهر منزلة جليلة، وأن له في حياة المسلمين رسالة عظيمة، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بتهيئة الجماعة المؤمنة للتقوى، كما قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» (البقرة: 183) ومن راقب حياة المسلمين في كل عام قبل قدوم رمضان، وبعد رحيل رمضان يستيقن من هذه الحقيقة الاجتماعية الثابتة بالمشاهدة، وهي توافر الخير وعمل الصالحات في هذا الشهر، وقلة الشر والجرائم فيه.

ولهذا يجتهد الوعاظ والخطباء في أواخر الشهر، ليقرعوا جماهير الناس باستمرار هذه النيات الصالحة، والعزائم الصادقة على عمل الخير، وخير العمل، وكثيرا ما سمعناهم يقولون في خطبهم ودروسهم: من كان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. بئس القوم قوم لا يعرفون الله إلا في رمضان، كن ربانيا، ولا تكن رمضانيا؟

وإنك لتعجب من تأثير هذا الشهر في الناس الذين انقطع حبل الصلة بينهم وبين الله ربهم وخالقهم ورازقهم: فإذا هم يعودون إليه في رمضان، ويعرفون المسجد، وتلاوة القرآن، وبعضهم يصوم هذا الشهر إن لم يزاول الصلاة.

ولكن.. كيف تستقبله؟

وإنك لترى أثر ذلك في أجهزة الإعلام: فتراها في هذا الشهر العظيم تستحي من تقديم ما لا تستحي منه في سائر الشهور، من أغان وأفلام وتمثيليات ومسلسلات ومسرحيات، بل تُعد لهذا الشهر برامج خاصة، تغذي الروح، وتنمي الإيمان، وتعلي القيم، وتزكي الأنفس، وتطارد الفحشاء والمنكر والبغي، لولا ما يشوبها في بعض الأقطار من بدعة راجت سوقها، ما أنزل الله بها من سلطان، وهي ما سموه «فوازير رمضان» التي اشتكى منها العلماء والعقلاء، وقالوا: إن رمضان بريء منها، ولا يجوز أن تنسب إليه بحال من الأحوال.

كذلك نحس أثر هذا الشهر في الحياة الاجتماعية: حيث تزداد الأسرة تماسكا، ويزداد المجتمع تواصلا: فيزور الناس بعضهم بعضا، ويدعو بعضهم بعضاً على الإفطار، ويحس الفقراء بأنهم في هذا الشهر أحسن حالا، وأوسع عيشا من الشهور الأخرى: بسبب موائد الرحمن، التي يقدمها الموسرون للمعوزين من الناس؛ لينالوا أجر تفطير الصائم، وتنتعش المشروعات الخيرية بما يقدم إليها من مساعدات من أهل الخير، من الزكوات المفروضة التي يُؤثر كثير من المسلمين إخراجها في رمضان، ومن الصدقات المستحبة التي يتسابق الناس إليها في هذا الشهر الكريم.

إلا ما أحوج أمتنا إلى أن تستفيد من هذا في شهر رمضان: فهو موسم المتقين، ومتجر الصالحين، وميدان المتسابقين، ومغتسل التائبين، ولهذا كان السلف إذا جاء رمضان يقولون: مرحبا بالمطهر! فهو فرصة للتطهر من الذنوب والسيئات، كما أنه فرصة للتزود من الصالحات والحسنات. فلنتخذ من رمضان (معسكرا) إيمانيا لتجنيد الطاقات، وتعبئة الإرادات، وتقوية العزائم، وشحذ الهمم، وإذكاء البواعث للسعي الدؤوب لتحقيق الآمال الكبار، وتحويل الأحلام إلى حقائق، والمثاليات المرتجاة إلى واقع معيش.

ورحم الله أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي الذي قال: «لو انصفك الناس يا رمضان لسموك مدرسة الثلاثين يوما».

وييسر في هذا الشهر المبارك إطعام الطعام وتفطير الصوام، وذلك من أسباب مغفرة الذنوب وعتق الرقاب من النار، ومضاعفة الأجور، وورود حوض النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي: من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا نسأل الله بمنه وجوده أن يوردنا إياه. وإطعام الطعام من أسباب دخول الجنة دار السلام، ورمضان شهر تتوفر فيه للمسلمين أسباب الرحمة وموجبات الغفرة، ومقتضيات العتق من النار، فما أجزل العطايا من المولى الكريم الغفار.

وهو شهر الذكر والدعاء وقد قال تعالى: «واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون» [الجمعة، الآية: 10] وقال سبحانه: «والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما» [الأحزاب، الآية: 35] وقال سبحانه: «وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين» [الأعراف، الآية: 56] وقد قال تعالى في ثنايا آيات الصيام: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان» [البقرة، الآية: 186] مما يدل على الارتباط بين الصيام والدعاء.

وفي شهر رمضان، ليلة القدر التي قال الله في شأنها: «ليلة القدر خير من ألف شهر» [القدر، الآية: 3] قال أهل العلم مفاد ذلك: أن العمل فيها خير وأفضل من العمل في ألف شهر - وهي ما يقارب ثلاثا وثمانين سنة - خالية منها وكفى بذلك تنويها بفضلها وشرفها، وعظم شأن العمل فيها لمن وفق لقيامها - نسأل الله تعالى أن يوفقنا على الدوام لذلك بمنه وجوده - وجاء في الصحيح عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه» وهذا من فضائل قيامها وكفى به ربحا وفوزا.

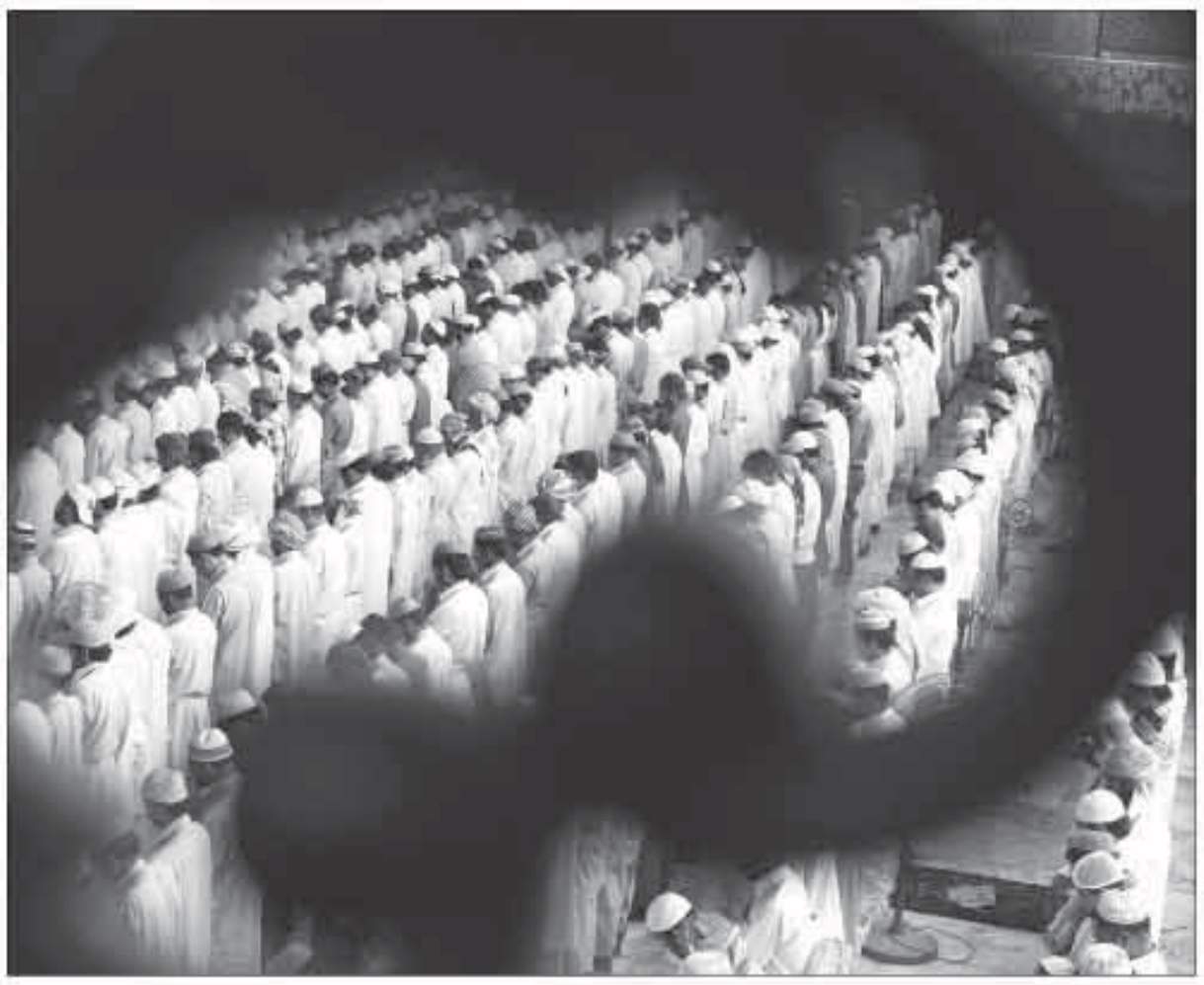

ومن خصائصه، فضل الصدقة فيه عنها في غيره، ففي الترمذي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، سئل أي الصدقة أفضل ؟ قال صدقة في رمضان وثبت في الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن، وكان جبرائيل يلقاه كل ليلة من شهر رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة» ورواه أحمد. وزاد ولا يسأل شيئا إلا أعطاه والجود: هو سعة العطاء بالصدقة وغيرها.

وفي زيادة جوده، صلى الله عليه وسلم، في رمضان اغتنام لشرف الزمان، ومضاعفة العمل فيه والأجر عليه، فقد روي عنه، صلى الله عليه وسلم - كما في حديث سلمان - أنه قال - في رمضان -: «من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ولأن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا والوقاية من النار». ففي الحديث الصحيح «الصوم جنة» أي وقاية من النار وفي الصحيح أيضا قال، صلى الله عليه وسلم، «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

ومن خصائص رمضان أن العمرة فيه تعدل حجة، فقد ثبت في الصحيحين عن النبي، صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عمرة في رمضان تعدل حجة» وفي رواية: حجة معي

ومن خصائصه، إنه شهر القرآن «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان» [البقرة، الآية: 185] فللقرآن فيه شأن في إصلاح القلوب والهداية التي هي أقوم من تلاه وتدبره وسأل الله به، وكم جاء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من بيان لفضل تلاوة القرآن ؟ بقوله، صلى الله عليه وسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» وقوله، صلى الله عليه وسلم: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي شفيعا لأهله يوم القيامة» وقوله، صلى الله عليه وسلم: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما» وقوله، صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وكلها أحاديث صحيحة، متضمنة لأعظم البشارات لتالي القرآن عن تفكر وتدبر، فكيف إذا كان في رمضان؟!! جعلنا الله من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.